

## كلمة الدكتور مروان المحاسني (\*) في ندوة «التراث في زمن المخاطر»

أيها السيدات والسادة:

نجتمع اليوم تحت رايةٍ ساميةٍ هي راية التراث، وحين نقول بأن تراثنا هو المنطلقُ الأصليُّ لذاتيتنا الثقافية نعني بذلك أن انتماءنا إلى الثقافة العربية يحمل إلينا سيلاً معرفياً، وتجاربَ إنسانية، تشارك في بناء شخصيتنا الحضارية. إلا أنه كثيراً ما يجري حولنا إطلاقُ مفهومِ التراث على الأشياء المحسوسة الموروثة في مجال حضاري معين، كالنُصب، والأدوات، واللوحات الفنية، والنقوش، والمصنوعات الخاصة بثقافة من الثقافات، أي إنها تشمل جميع المظاهر الحياتية التي تتميزُ بها تلك الثقافة. فنحن عندئذ نتكلم في مجال العمران عن أنماط من المباني توصف بأنها تراثية، لأنها جزء من ذوقية خاصة سائدة في مجموعة إنسانية محددة، أو هي نتيجة لضروراتٍ محلية، بشرية أو مناخية، فنصفُها بأنها تراثية نظراً لانتشارها، كناطحات السحاب في أمريكا، أو الأبنية البسيطة في القطب الشمالي، أو مجاهل إفريقية، وأما حين نتحدث عن الفن الصيني أو الياباني، فإننا نبحث في كل منهما عن العناصر الوصفية التراثية، التي تمكّنا من التفريق بين المنتجات الفنية لكلٍ منهما. وكذلك حين

---

(\*) ألقى رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق الأستاذ الدكتور مروان المحاسني هذه الكلمة في افتتاح ندوة (التراث في زمن المخاطر) بتاريخ ١٩/٤/٢٠١٧.

ذكر اللباس التراثي للأقوام المختلفة، نعني به اللباس اليومي المعتاد المرتبط بالمناخ المحلي، أو ذلك الخاص بالمناسبات والاحتفالات، وهو لباسٌ غالباً ما يكون سائداً في منطقة معينة من عالمنّا.

ومن جهة أخرى هناك ظواهر تراثيةٌ لعدد كبير من النشاطات الإنسانية في كل مجتمع، منها المهرجانات المرتبطة بالمناسبات الدينية، أو طقوسُ زيارة الأماكن المقدسة، كما تشمل قواعد زفاف العرائس، أو الرقصات الخاصة كالذبكة في مشرقنا، وهي عاداتٌ يصعب علينا أن نعود إلى أصولها.

وأما ما نعنيه بالتراث في المجال الفكري المكوّن لمجتمعنا، فهو ذلك المسارُ المتّصل بماضي أمتنا، بتفصيل دقائق تاريخها، من انطلاقها من جزيرة العرب إلى بلاد الشام، وما أنجزته من حضارةٍ مشرقيةٍ تحملها لغةٌ تطابقت مع مختلف مُجريات التاريخ، حتى أنتجت علوماً عقليةً تجريبيةً عاليةً المستوى، إلى جانب تعمقٍ حقيقي في الفقه، وفي الفلسفة.

فإذا كان التراث الفني والمجتمعي في بلادنا قابلاً للتأثر بضغطوط الحداثة أو مُشجّعاتها، بما تهدّد به من مخاطر، نظراً لما نراه من تسارع في إنتاجها لوسائل تُسهّل حياة الإنسان المعاصر، فقد يصلُ تأثيرها إلى إحداث انفصالٍ ثقافي كامل كما نراه في مجالات الفنون والصناعات، فلا بدّ لنا من القول بأن التراث الفكري الاجتماعي ليس في متناول تلك المؤثرات.

ذلك لأن تراثنا الفكري مُتجدّد في ذاتيتنا الثقافية، ولا يكون خلعهُ وإبعاده عن رواسيهِ إلا بطريق الاستلاب الثقافي، الذي يستطيع في بعض الحالات أن يُبعد الأفراد، أو الجماعات، عن لغتها مؤكداً اغترابها عن انتماءاتها. وهذا أمر لا يستطيع المخاطر أن تفرّضه على الأفراد والجماعات، إلا إذا أرادوا الوصول إلى ما يسميه المستشرق الكبير (جاك برك) Jacques

Berque «بتراً لغوياً»، نظراً لأن اللغة هي الحامل الأساسي للحقائق التراثية المدونة في النصوص، كُتِباً ومخطوطات.

لذا يمكن القول بأن جوهر التراث الفكري لا تناله المخاطر إلا إذا أراد صاحبه إسقاطه طوعاً.

### أيها الحفل الكريم:

إنّ المخاطر قادرة على أن تسيطر على المقومات المادية الحاملة للتراث، الحافظة له، فهي تستطيع أن تقضي عليها قصداً أو عَرَضاً، وذلك على الأخص في زمن الحروب والكوارث الطبيعية كالزلازل والحرائق والهجرات البشرية المرتبطة بالشؤون المعيشية.

وأما إذا كان تراثنا حياً في أذهاننا، وهو المحرك المسيطر على تعاملنا مع ما يحيط بنا من أحداث وظروف طارئة، أي إنه الناظم الوجداني لكل فرد في تعامله مع الآخر، فمن البديهي التأكيد أن منطلقات هذا التراث الحي، المُهيكل لشخصيتنا الحضارية، هي محفوظة في سطور مبثوثة في كتب مطبوعة، أو مازالت مكتوبة في مؤلفات لم تصل إلى مطابع الحدائث، أو في مخطوطات ثمينة احترقت الأزمنة والعصور، ووصلت إلينا حاملة ما يُمكننا اعتباره مرجعيات لغوية وفقهية وعلمية، تشرح لنا مُكونات ما وصل إلينا من فكر أصيل نَبَت عنه هذه المراجع.

وأما النصوص فقد كُنّا صغاراً نشاهد أمثال تلك الكتب والمخطوطات، في بيوت دمشق القديمة، في حَيِّ «العمارة» أو «القنوات»، محفوظة في كُتُبَات أبوابها الصغيرة مُعلقة بالزجاج، حماية لها من الغبار، تتصدّر القاعة الجميلة التي اكتست جدرانها بالخشب الشامي المزخرف، وهي تُطلّ على فسقِيّة رُخامية صغيرة، يُسمع خرير مياهها الهادئ في العتبة، تَبَثُّ في القاعة

الرطوبة المطلوبة، لحفظ الكتب مما هو معروفٌ عن جو دمشق المائل إلى الجفاف. والقاعة ذاتها يحميها الإيوان المجاور لها من نفوذ حرارة الشمس، إلا من نافذةٍ صغيرة في جدارها الشمالي، المُطلّ على أرض الدار الواسعة، وكانت القاعة مَلاذاً مثاليّاً لقيولة بعد الظهر.

وأما اليوم فتراثنا المادي المكتوب محفوظٌ في المؤسسات الرسمية، وكانت المكتبة الظاهرية أول هذه المؤسسات حين استفاد مجمعنا عند إنشائه من ذلك البناء التراثي البديع الذي يؤوي ضريح الملك الظاهر بيبرس، فجعله مكتبةً للمجمع، وجعل المدرسة العادلية المقابلة للظاهرية مركزاً لاجتماعاته.

وقد انتقل معظم هذه المخطوطات إلى مكتبة الأسد بعد إنشائها، وبقي عدد قليل منها في مكتبة مجمعنا.

أيها الحفل الكريم:

لقد كان لزاماً علينا أن نحيط تلك المخطوطات بالرعاية والعناية الدائمة، وهذا ما جعلنا نستعين بشخصيةٍ خليجية لها باعٌ طويل في هذا المجال، هو جمعة الماجد الذي أرسل لنا من يُدرّب العاملين في مجمعنا على العناية الدقيقة بالمخطوطات، كما أهدى إلينا التجهيزات الحديثة اللازمة لهذا العمل.

وما تزال المخطوطات العربية مثورة في مكاتب عواصم العالم، وقد استفاد منها المستشرقون أكثر من أصحابها، وكانت معرفتنا لمحتواها ممهورةً بتفسيرهم في أغلب الأحيان.

وقد تبين منذ بضع سنوات أن شنقيط، وهي موريتانيا اليوم، هي أغنى البلاد العربية في حيازة المخطوطات، وذلك في مكتبة تنبكتو، عاصمة تجارة الملح

بين السنغال والمشرق في القرون الوسطى، ولا شك بأن المخاطر أصبحت مُحَدِّقَةً بها في تلك الأجواء المشحونة بأنواع العنف في الشمال الإفريقي.

وفي أية حال فإنّ المخطوطات تُحَفُّ فنية علمية ثمينة علينا أن نجعل محتواها العلمي في متناول الباحثين، يُضيفون ما فيها من دقائق المجالات التي تختصّ بها إلى ما هو منشور في البحوث الحديثة، لعلهم يكشفون فيها ترسبات حضارية لم تكن واضحة قبل الآن، مُستعينين بمعطيات النقد الحديث، مُبرزين الكثير مما نسميه اليوم التناص.

وقد تجاوب مجمعنا مع هذه الضرورات المُلحّة، وبخاصة تلك المتعلقة بهشاشة المخطوطات، وبانتشار العنف في عالمنا، فاعتمدنا الوسيلة الحداثيّة المثلى، وهي الرقمنة، للحفاظ على محتوى تلك المخطوطات.

وقد بدأنا الاتصالات اللازمة لإدراج تلك النفايس في نظام حاسوبي يجعلها في متناول الباحثين في أنحاء المعمورة، وذلك بالالتحاق ببرنامج حاسوبي عالمي يتولّى ربط محتويات مكتبتنا بالمكتبات العالمية.

ولا ننسى أنّ عدداً من هذه المخطوطات يتضمن رسوماً وشروحاً رياضية لبحوث العلماء، من أمثال الحسن بن الهيثم في البصريات، إلى جانب تخطيطات دقيقة في علم (الحيل) أي الميكانيك، وهذا ما يجعل باب التصوير يبقى ملازماً لهذه البرامج الرقمية.

وقد رأيت في مركز العلوم العربية الذي يديره الأستاذ فؤاد سزكين في فرانكفورت كيف تمكّن المهندسون الألمان من إعادة تركيب نموذج الساعة التي كانت على باب المسجد الأموي بدمشق، لضبط مواقيت الصلاة، ويُعتَقَد أنّ الساعة التي أرسلها هارون الرشيد إلى (شَرْلُمان) كانت مشابهة لهذا النموذج.

## أيها الحفل الكريم:

لقد رأينا أنّ يوم المخطوطات العالمي فرصة مناسبة للاستماع إلى ما يقوله المختصون في شؤون الحفاظ على التراث المكتوب في بلادنا، وقد قبلتُ ثلّة من الأساتذة دعوتنا، ولهم الشكر الجزيل.

ويطيب لي أن أطلب إلى الأستاذ الدكتور محمود السيد نائب الرئيس التفضل بإدارة الجلسة العلمية، فليتفضل.

\* \* \*